البراق النبوي

وقصة المعراج في التصوير الاسلامي

لعمر حمدي
خريج معهد الآثار الاسلامية

يُعدُّ تصوير البراق أحد مظاهر التصوير الديني الاسلامي الغريبة
والبراق هو تلك الدابة العجيبة التي قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم امتطاها ليلة أسري به ثم عرج به الى السماء

وينص على هذا الحادث القرآن الكريم في سورتي الاسراء والنجم ففي الأولى يقول الله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انهُ هو السميع البصير) وفي الثانية يقول تعالى (ذو مرّة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين او أدنى) الى آخر الآيات

وقد ذكر ذلك كتّاب السيرة وقالوا ان سيدنا جبريل عليه السلام هو الذي صاحب الرسول صلوات الله عليه وأرشده في طريقه من مكة الى بيت المقدس ثم في معراجه الى السماء ومعهما ملكان . وتختلف الروايات في جوهرها اختلافات هامة فبعضها ينص على ان المعراج كان بسلّم وبعضها يقول انهُ كان على شجرة وفي اخرى ينص بكل بساطة انهُ عرج به ولم تبين أداة المعراج . وفي رواية تذكر ان حادثي الاسراء والمعراج لم يقعا تباعاً بل هناك فترة تفصلهما مقدارها سنة أشهر ولكن الأرجح انهما متعاقبتان وفي ليلة واحدة

وبعض الروايات يذكر ان البراق استحضر لنقل الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة الى القدس فقط . والبعض يقول انه عرج به عليه ايضاً ويذكر باقي القصة ان النبي (صلعم) عند اختراقه طباق السموات السبع الواحدة تلو الاخرى كان يقابل في كل منها أحد الأنبياء الذين سبقوه وهم آدم ونوح وعيسى ويوسف وادريس وابرهيم وموسى ثم حضر الملأ الأعلى

وليس هنا محل التساؤل عن هذا الموضوع الذي قتلهُ علماء المسلمين بحثاً واختلافاً في هل كانت هذه الرحلة حقيقة بالجسد أم بالروح ولكن القائلين المسلمين اخذوا رواية انها بالجسم لا بالروح

وما يهمنا في بحثنا هذا الموضوع هو ما الأصل الذي اشتق منه طراز هذا الحيوان الذي اختاره الناشون للدابة التي ركبها الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المناسبة

ينص أحد الأحاديث على انه كان حصاناً وآخر على انه كان دابة ركوب بيضاء أصغر من البغل وأكبر من الحمار وانها كانت نفس الدابة التي امتطاها الأنبياء من قبله خصوصاً سيدنا ابراهيم. فقد نص في الاصحاح ٢٢ من سفر التكوين من التوراة ان ابراهيم ركب حماراً وكذلك في الآية ١٤ من الاصحاح ١٢ من انجيل يوحنا ان المسيح عليه السلام امتطى حماراً. ومن المحقق ان كتاب المسلمين لا يجهلون اجمالاً هذه الاخبار السالفة من انه هو نفس الحمار الذي استخدم لركوب الانبياء ولكنهم رأوا انه من الأنسب ان لا يستخدم في الاسراء مثل هذا الحيوان الوضيع فلم يصفوا البراق بانه حمار ولو انهم يصفون بانه شيء يشبهه

ومن غير شك فان البراق استحضر اصلاً لحمل النبي (صلعم) الى بيت المقدس ولما اريد ان يعرج الى السماء أضيفت اليه الاجنحة. وهكذا فان كتاب السيرة الذي وضعه ابن اسحق والذي وصلت الينا روايته في سيرة ابن هشام يصف الاسراء والمعراج نقلاً عن الأحاديث النبوية اذ يقول ان البراق دابة مجنحة بيضاء اللون متوسطة الحجم بين البغل والحمار. وفي الروايات القديمة ليس ثمة ذكر لرأس الآدمية التي هي مظهر خاص من مظاهر الصور التي تمثل البراق. وأول كاتب ذكر ان لهذه الدابة صفة آدمية هو الثعالبي في كتابه تاريخ الأنبياء فأورد حديثاً يغلب عليه انه صحيح يذكر ان للبراق خداً كالخد الآدمي. وزاد على ذلك الكتاب المتأخرون فانهم وصفوا البراق وفصلوا في وصفه تفصيلاً وافياً فنلاً يقول خواندمير في كتابه حبيب السير ان البراق دابة ركوب أصغر من البغل وأكبر من الحمار وله وجه يشبه وجه الانسان وآذان كآذان الفيل وعرفة كعرفة الحصان ورقبة وذيل كرقبة الجمل وذيله وصدره كصدر البغل وأرجله كأرجل الثور ويرى صدره كالياقوت وشعره شعره الذرع الابيض الذي يلمع لمعاناً قوياً لضيائه العظيم وفي جانبه جناحان يخفقان أرجله وهو سريع جداً حتى انه في طرفة عين يتمكن أن يصل الى أقصى مرمى البصر

ولم تتفق الروايات القديمة في النوع الجنسي للبراق فهو يوصف عادة بأنه ذكر ولكن ابن سعد في سيرته التي ألفها بعد ابن اسحق بسبعين سنة يروي ان سيدنا جبريل عليه السلام يخاطب البراق خطاب الأنثى. ولذلك فان المصورين يصورونه برأس سيدة آدمية ولكنهم لم يحاولوا ان يبرزوا صورة مماثلة بالشكل الذي وصفه خواندمير لأنهم لم يستطيعوا استحداث صورة له على أساس مستمد من ملامح الآدمية. فقد ذكر المأثور أمثلة كثيرة لهذا الحيوان العجيب فاستخدموه أنموذجاً لرسم صورهم. فتركيب الرأس الآدمية على الجسم

الحيواني يرجع في قدمه الى الازمنة السحيقة في القِدَم فهناك أبو الهول المصري والقنطروس الاغريقي والشارويم الآشوري الذي توجد منه أشكال مختلفة تحتفظ جميعها بالجسم الحيواني والرأس الآدمي والاجنحة. وهذا الشكل يطابق كثيراً الصورة التي غالباً ما تمثل البراق النبوي في التصوير الاسلامي. وقد ظهرت هذه الاشكال في الآثار الشرقية القديمة على مواد مختلفة كالحجر والعاج والبرونز وكذلك على ألواح الطين

ولسنا نعرف في أية فترة من تاريخ الفنون الاسلامية صوّر البراق بهذا الشكل الرمزي لانهُ من المستحيل الجزم بذلك لفقدان الأمثلة المبدئية حتى أنهُ ليقال ان أحد هذه النماذج وجد طريقه الى المدينة زمن النبي صلى الله عليهِ وسلم ففي الحديث ان السيدة عائشة علقت في حجرتها ستائر عليها صور خيل مجنحة فغضب الرسول لذلك ومزقها

وان أقدم صور البراق في الفنون الاسلامية ظهرت مرسومة في كتاب جامع التواريخ للوزير رشيدالدين المؤرخ سنة ٧١٤ م فقد اتبع في تصويره طراز القنطروس فالجزء العلوي من الجسم ذراعان كما ان له أربع أرجل حيوانية. كذلك نلاحظ في الصورة تجديداً لم تكن رؤيته معتادة من قبل فنرى ان البراق يمسك بين يديه كتاباً هو في الغالب نسخة من القرآن وكذلك نجد ذيلهِ معقوصاً لاعلى وينتهي في جزئه العلوي بجسم آدمي يشمل الصدر والرأس والذراعين. وفي اليد التي سبب طويل وفي اليسرى مجن مستدير. وتلتوي خصلات الشعر السكينية في نهاياتها وهي تتدلى تحت خدي هذا الجزء الآدمي مما يجعلها شبيهة بوجه البراق نفسه. ويعلو الرأس تاج من نفس النوع الذي يلبسه البراق أيضاً ويشبهه في الشكل والزخرف وهما يشبهان ما يلبسه الملوك في كثير من التصاوير التي في كتاب الآثار الباقية للبيروني المحفوظ بمكتبة جامعة ادنبره رقم ١٦١. ومع هذا كله فان أصل هذا التجديد الذي لزيادة الذيل الى البراق في هذه الصورة لا يزال مبهماً

***

والطراز الذي صادف هوى في نفوس المصورين المسلمين المتأخرين لتصوير البراق هو ما يشبه أبا الهول مع أن المأثور عن الاحاديث المتواترة في وصف البراق ان جسمه يشبه البغل وليس شبيهاً بالأسد

وكما أسلفنا فان تصوير أبي الهول له تاريخ فني طويل في آسيا الغربية. ولكن خصوص موضوعنا هذا ليس من الضروري أن نرجع الى العصور الخالية البعيدة اذ أن التصاوير المعاصرة للعراق يمكن ربطها ربطاً دقيقاً بصور أبي الهول المختلفة التي ظهرت على ظروف الفخار

مدينة الري التي اجتاحها المغول وحرقوها سنة ١٢٢٠ م . فلم تستطع أن تستعيد مكانتها الأول . وهكذا فان تاريخه ليس بعيداً عن الصور البكرة للبراق الذي انحدر الينا ويمكن ملاحظة مثل ذلك في صور ابي العول المرسوم بطريقة متتابعة حول جامة متوسطة في الطبق الكبير الذي صنع لبدر الدين لولو الزنكي اتابك الموصل بين عامي ١٢٣٣—١٢٥٩م

بعد ذلك صار من اليسور أن يصور المصورون المسلمون البراق في مناسبات مختلفة وكثيرة . وان مصادر الروايات عن معراج الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة ومتعددة في كل سيرة ألفت بها باب خاص في موضوع الاسراء والمعراج وكذلك كتب التفسير بها تعليقات على هذه الحادثة زد على ذلك المقالات والرسائل الخاصة بهذا الموضوع فان كثيراً من رجال الصوفية أسبغوا عليها تأويلات من عندياتهم

كذلك نرى ان النسخ المصورة من دواوين شعراء الفرس تشمل صوراً للبراق قد عني بها المصورون عناية خاصة لتكون تامة الاظهار والبروز بين الصور المختلفة في الكتب . فمثلاً ديوان المنظومات الخمس للشاعر نظامي وهو من أحب الشعر عند الايرانيين والذي أمكن تصوير موضوعاته، بدأ المؤلف مقدمته بتمجيد الله والثناء على رسوله ثم قص أقاصيصه شعراً ومن ضمنها قصة المعراج التي نصت على رفع الرسول صلى الله عليه وسلم الى مستوى لم يبلغه مخلوق عادي اذ انهُ شهد الحضرة القدسية وعاين من الاسرار ما لم يتح لغيره ان يرفع الستار عنها له ، وفيها فرضت الصلاة على أمته ونال الشفاعة العظمى للمؤمنين ولن يكون الواسطة في نجاتهم يوم الدين . اجتذب ذلك عبقرية المصورين وآثار فنهم فصوروا هذا الصور والرسوم الفخمة فتخيلوا صورة البراق ومن فوقه التي تحف به الملائكة وطاروا في ابراز هذه الصورة إذ ليس بين حوادث التاريخ الديني الاسلامي ما يمكن توضيحه بابداع كحادث المعراج هذا

***

و نشاهد انه لم يعن بتصوير المعراج العناية الكافية في أي مخطوط منها عني به في مخطوط منظومات الخمس السابق الذكر والمحفوظ في مكتبة المتحف البريطاني تحت رقم (Or. 6810, fol. 195) ؛ فلاحظ ان المدى الفسيح الذي بين السموات والأرض وتعلى بكثف من السحب البيض يظهر من بينها فرجة بها جزء من سماء الزرقاء الداكنة يمر بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ماضية في طريقها جانحاً بكل راحته على دابته ذات الرأس الآدمية التي لم يعقها ولم يخلها اتساع المعراج العظيم الحادث عنها الذي فيه قد تركت الكرة الارضية

تلمع ومن حولها هالة بيضاء وامامه صلى الله عليه وسلم يسير سيدنا جبريل وهو مرسوم بشكل مجنح مليح يقود الركب في طريقه وبين سيدنا جبريل والبراق يوجد ملك يحمل مبخرة عظيمة معلقة بقضيب ويتصاعد منها لهب كأنه الذهب. وثمة ملك آخر تحت الرسول ومحافظ على جواره طوال السير راقصاً طبقاً ملوحاً بالعطور المحترقة . ومن فوق رأس النبي ملائكة يفرغون اطباقاً من اللآلىء والجوهر والياقوت يمكن ملاحظتها وهي تتناثر من حوله كالشهب الساقطة اللامعة . ثم جمهور من الملائكة تهوي نحوه صلى الله عليه وسلم من السماء حاملين الهدايا المختلفة فواحد يحمل مصحفاً ، وثان حلة خضراء ثمينة (يقال انها لا تزال موجودة ضمن مخلفات الرسول باستنبول) ، وثالث يحمل تاجاً وآخرون يتقدمون اطباقاً من الفاكهة وانواعاً مختلفة من الطعام

ولن الخيال العام في هذه الصورة لما يثير المشاعر فهي مليئة بالحركة التي توضحها رفرفة عدد عظيم من الأجنحة الملونة

والملحوظ في تصاوير قصة المعراج المختلفة ان أهم الشخصيات فيها صورة النبي صلى الله عليه وسلم راكباً البراق ومن أمامه جبريل عليه السلام وأحياناً صورة الكعبة

وفي نسخة مخطوط معراج نامه المحفوظة في المكتبة الاهلية بباريس رقم (Sup. Turc 190) وهي مخصصة بأكملها لقصة المعراج يرى سيدنا محمد راكباً فوق البراق في حضرة الانبياء المختلفين والملائكة

ولما أخذ التصوير الايراني وتدهور في القرنين السابع عشر والثامن عشر أصبحت صور البراق مبتذلة وصار اظهاره غير مستحب به فأضيف الى الشكل المقيم الذي صور به التاج الثقيل على مثال ما كان يلبسه ملوك إيران المتأخرين وكذلك أضيف ذيل طاووس منتشر بدلاً من ذيل الجمل المعادي

***

وما كان تصوير النبي نفسه غير شائع في الدين الاسلامي وليس ثمة تعاليم دينية صحيحة بهذا الخصوص ولا يمكن اظهار شخصه اطلاقاً ولكن مع ذلك فمن مثل ذلك موضوع لا يمكن فنياً التجاوز عنه مع ان الدين لا يسمح به . لذلك فكثير المصورون في تلافي ذلك فأخطوا الرأس بهالة من نور بدون ان يرسموا شكل الوجه وهو على شكل شعب لتكون دليلاً على القدسية

وحتى للبوم فانا نجد صوراً وكيكة للبراق بدون راكبها تصور كثيراً على حوائط القرى المصرية خصوصاً عشية أداء أحد الاهالي فريضة الحج وكذلك نوجد تصاوير حية مبتذلة له تحمل غالباً في مراكب شهر المحرم في بلاد الهند